الفصل الخامس و الثلاثون

حرية الضمير في خطر

يقابل البروتستانتُ في هذه الايام الكنيسة الكاثوليكية برضى وقبول أعظم مما في السنين الماضية. ففي البلدان ذات الاكثرية البروتستانتية، حيث يلجأ البابويون الى الطرق السلمية والحبية لكي يكون لهم النفوذ، ثمة جانب كبير من عدم الاكترات بالنسبة الى العقائد التي تفصل الكنائس المصلحة عن النظم البابوية، ورأي يرسخ في الاذهان وهو اننا لا نختلف عن الفريق الآخر اختلافا حيويا كما كان يظن، وأن قليلا من الاذعان من جانبنا سيجعلنا في حالة تفاهم افضل مع روما. جاء على البروتستانت وقت كانوا فيه يقدرون حرية الضمير تقديرا عظيما، تلك الحرية التي قد اشتروها بثمن غال جدا. لقد علموا اولادهّم ان يمقتوا البابوية، وكانوا يعتقدون ان محاولة الاتفاق مع روما انما هي خيانة لله. ولكن ما أبعد الفرق الآن بين هذا والمشاعر والعواطف التي يعبر عنها!

أما المدافعون عن البابوية فيعلنون أن الكنيسة قد أسيء اليها. والمسيحيون في العالم البروتستانتي يميلون الى قبول هذا التصريح. وكثيرون يلحون قائلين انه ليس من الانصاف الحكم على كنيسة اليوم بالرجاسات والسخافات التي اتصف بها حكمها في عصور الجهالة والظلام. وهم يعتذرون عن

قسوتها الرهيبة كنتيجة وحشية العصور السالفة ويقولون ان تأثير المدنية الحديثة قد غير من أفكارها ومشاعرها.

فهل نسي هؤلاء الناس ادعاء العصمة الذي ظل هذا السلطان المتعجرف يتشدق به لمدى ثماني مئة سنة ؟ وبدلا من التخلي عن هذا الادعاء فقد تثبت في القرن التاسع عشر بتأكيد اعظم مما سبق. وبما ان روما تصرح بأن الكنيسة « لم تخطئ وانها، بشهادة الكتاب، لن تخطئ ابدا » (٣٥٨) فكيف يمكنها ان تنبذ المبادئ التي اختطت لها الطريق في العصور السالفة ؟

لن تتنحى الكنيسة البابوية ابدا عن ادعائها العصمة. وكل ما فعلته باضطهادها الذين رفضوا تعاليمها تعتبره عين الصواب. فهل لن تكرر هذه الافعال نفسها لو اتيحت لها الفرصة ؟ فلو أزيلت الروادع التي تفرضها الحكومات الدنيوية وعادت روما الى قوتها وسلطانها السابقين فسرعان ما ينتعش طغيانها وتتكرر اضطهاداتها.

يتحدث كاتب مشهور عن موقف الحكومة البابوية حيال حرية الضمير والمخاطر التي تتهدد الولايات المتحدة بنوع خاص من نجاح سياستها فيقول : «كثيرون يميلون الى ان ينسبوا أي خوف من الكنيسة الرومانية الكاثوليكية الى التعصب او الطياشة. مثل هؤلاء لا يرون شيئا في صفات الكاثوليكية واتجاهاتها معاديا لدساتيرنا وتشريعاتنا الحرة، ولا يرون ما ينذر بالشؤم من نموها وتقدمها. اذاً فلنقارن اولا بين بعض مبادئ حكومتنا الاساسية ومبادئ الكنيسة الكاثوليكية.

يكفل دستور الولايات المتحدة حرية الضمير، ولا شيء أعز ولا أثبت من ذلك. ويعلق البابا بيوس التاسع في براءته المؤرخة في ١٥ آب (اغسطس) من عام ١٨٥٤ قائلا :" ان التعاليم السخيفة المخطئة والهذيان الذي به يدافعون عن حرية الضمير إنما هي ضلالة وبيلة وهي ضربة أخطر من كل ما عداها في أية دولة ". وهذا البابا نفسه في براءته الصادرة في ٨ كانون الاول (ديسمبر) عام

١٨٦٤، لعن " اولئك الذين يؤكدون حرية الضميرة وحرية العبادة الدينية " وكذلك " كل من يصرحون بأن الكنيسة ينبغي الا تلجأ الى القسوة والعنف ".

« لا تدل نغمة روما السلمية في الولايات المتحدة على تغيير القلب. انها تُظهر التسامح في الاماكن التي تكون فيها عاجزة لا حول لها ولا قوة. والاسقف اكونر يقول : " ان الحرية الدينية تُحتمل فقط الى الوقت الذي فيه يمكن تنفيذ القهر والارغام من دون أن يكون هنالك خطر على العالم الكاثوليكي "... وقال رئيس اساقفة سانت لويس مرة : " ان الهرطقة وعدم الايمان جريمتان، وفي الممالك المسيحية كما في ايطاليا واسبانيا مثلا حيث الشعب كله كاثوليكي وحيث الدين الكاثوليكي هو جزء جوهري من قانون البلاد تعاقب تانك الجريمتان كغيرهما من الجرائم".

« وكل كردينال ورئيس اساقفة واسقف في الكنيسة الكاثوليكية يحلف يمين الولاء للبابا، وفي تلك اليمين المقدسة ترد هذه العبارة : " اني سأضطهد وأقاوم بكل قوتي الهراطقة والمنشقين والعصاة على سيدنا الذي يدعى البابا وخلفائه"» (٣٥٩).

نحن لا ننكر أنه يوجد مسيحيون حقيقيون في الكنيسة الرومانية الكاثوليكية. فان آلافا من الناس في تلك الكنيسة يخدمون الله بحسب افضل نور معطى لهم. غير انه لا يسمح لهم بقراءة كلمة الله ولذلك لا يميزون الحق. وهم لم يروا قط الفرق بين الخدمة القلبية الحية وروتين الممارسات والطقوس. ان الله ينظر الى هذه النفوس باشفاق ورقة عظيمين اذ انها قد نشأت على ايمان لا يشبع النفس بل يغرر بها ويخدعها. وهو سيجعل أشعة النور تخترق الظلمات الكثيفة التي تكتنفهم. وهو سيعلن لهم الحق كما هو في يسوع، وكثيرون منهم سينضمون الى شعب الله.

لكن الكاثوليكية كنظام ليست متوافقة الآن مع انجيل المسيح كما كان الامر في اي حقبة من تاريخها الماضي. والكنائس البروتستانتية هي في ظلام

دامس والا لكانت تميز علامات الأزمنة. والكنيسة الكاثوليكية بعيدة المدى وواسعة الافق في خططها وفي أساليب عملها. انها تستخدم كل حيلة في سبيل نشر نفوذها ومضاعفة سلطانها استعدادا لحرب رهيبة في اصرار شديد لاسترداد سيادتها على العالم والعودة الى الاضطهاد وإبطال كل ما قد عملته البروتستانتية وهدمه. والكاثوليكية تستعيد ميادينها واراضيها في كل مكان. انظروا الى تزايد عدد كنائسها وأمكنة اجتماعاتها في الممالك البروتستانتية. انظروا الى شهرة كلياتها ومعاهد لاهوتها في الولايات المتحدة حيث يعضدها البروتستانت على اوسع مدى. ثم انظروا ايضا الى نمو الانظمة الطقسية في انجلترا وكثرة الارتداد الى صفوف الكاثوليك. هذه الامور يجب ان توقظ الجزع والخوف في قلوب كل من يقدرون مبادئ الانجيل النقية.

تواطؤ وتراخ

لقد هادن البروتستانت البابوية وناصروها. قبلوا بتسويات وقدموا تنازلات فوجئ البابويون انفسهم برؤيتها وعجزوا عن فهمها. فالناس يغمضون عيونهم من دون معرفة الصفة الحقيقية للكاثوليكية والمخاطر التي يُخشى منها بسبب سيادتها. فعليهم ان يستيقظوا لمقاومة زحف هذا العدو الاشد خطرا على الحرية المدنية والدينية.

يظن كثير من البروتستانت ان الدين الكاثوليكي غير جذاب وان العبادة فيه كئيبة والطقوس تمارس على وتيرة رتيبة خرقاء. ولكنهم مخطئون في هذا. ففي حين ان الكاثوليكية مبنية على الخداع فهي ليست حيلة فظة سمجة. ان الخدمة الدينية في الكنيسة الكاثوليكية هي طقس مؤثر جدا. فعرضها الجميل وطقوسها المهيبة تخلب وتسحر الناس وتسكت صوت العقل والضمير. والكنائس الفخمة والاحتفالات الفاخرة والمذابح الذهبية والهياكل المزينة بالجواهر والزخارف الغالية النادرة والتماثيل الرائعة كلها تؤثر في نفوس محبي الجمال. والاذن تؤسر كذلك. فالموسيقى لا تبارى ونغمات الارغن العذبة العميقة

التي تمتزج بترانيم الجوقات المتعددة الاصوات العذبة والتي ترتفع في أجواء القباب العالية ومماشي الكاتدرائيات الفخمة لا بد انها تملأ العقل بالهيبة والوقار

هذا الجمال الخارجي والفخامة والطقوس التي تسخر من أشواق النفس التي اسقمتها الخطيئة انما هي برهان على الفساد الداخلي. فدين المسيح في غير حاجة الى مثل هذه الجواذب للترويج له. ففي النور الذي ينبثق من الصليب تبدو المسيحية الحقيقية طاهرة وجميلة جدا بحيث انه لا توجد زينات خارجية ترفع من قيمتها الحقيقية. ان الزينة المقدسة التي هي زينة الروح الوديع الهادئ هي قدام الله كثيرة الثمن.

ليس أسلوب الانسان المتأنق في كلامه دليلا اكيدا على سمو تفكيره وطهارته. فكثيرا ما يوجد الفكر الغني السامي والذوق المهذب الرقيق المتأنق في العقول الارضية الشهوانية. وكثيرا ما يستخدمها الشيطان ليسوق الناس الى نسيان حاجات النفس الضرورية حتى تغيب عنها الابدية وحياة الخلود لينصرف الناس عن معينهم السرمدي ويعيشوا لهذا العالم وحده.

ان الديانة السطحية تجذب القلب غير المتجدد. والفخامة والرسميات التي تُرى في العبادة الكاثوليكية لها قوة مضللة ساحرة ينخدع بها كثيرون ويبدأون ينظرون الى الكنيسة الكاثوليكية على أنها باب السماء نفسه. وليس من برهان ضد تأثيرها غير اولئك الذين قد ثبتوا اقدامهم على أساس الحق وتجددت قلوبهم بقوة روح الله. وان آلافاً ممن لا توجد عندهم معرفة اختبارية للمسيح سيقبلون صورة التقوى من دون قوتها. مثل هذا الدين هو ما تشتاق اليه جماهير غفيرة من الناس.

اجازة لفعل الشر

ادعاء الكنيسة بحقها في الغفران يجعل الكاثوليك يظنون ان لهم الحرية في ان يخطئوا، وفريضة الاعتراف التي من دونها لا يمكنها ان تمنح الغفران تقود

ايضا الى اباحة ارتكاب الشر. ان من يجثو امام انسان ساقط وبالاعتراف يكشف له عن مكنونات قلبه وافكاره انما يحقِّر رجولته ويحط من شأن كل قوة نبيلة في نفسه. واذ يكشف عن خطايا حياته للكاهن ــ الذي هو انسان خاطئ مذنب، وغالبا ما تكون قد افسدته الخمر والخلاعة ــ فان مقياس اخلاقه ينخفض ويكون من نتائج ذلك انه يتنجس. وينحط مفهومه الى شبه البشرية الساقطة لان الكاهن هو في نظره ممثل الله. فهذا الاعتراف المذِل من انسان لانسان هو النبع الخفي الذي انبعث منه وفاض كثير من الشر الذي ينجس العالم ويعده للهلاك النهائي. ومع ذلك فان من يحب الانغماس في الخطيئة يفضل الاعتراف لانسان ساقط من ان يكشف خفايا قلبه ونفسه لله. انه أمر مقبول اكثر للطبيعة البشرية ان يقدم الانسان تكفيرا من ان يترك خطاياه. ويسهل على المرء ان يميت الجسد بالمسوح والاشواك والاغلال المزعجة ولا يسهل عليه أن يصلب شهوات الجسد. ان النير الذي يرغب القلب الجسداني ان يحمله لهو نير ثقيل ومع ذلك فهو يفضله على الانحناء تحت نير المسيح.

مشابهة مدهشة

توجد مشابهة مدهشة بين كنيسة روما والكنيسة اليهودية في ايام المجيء الاول للمسيح. ففي حين كان اليهود يدوسون في الخفاء على كل مبادئ شريعة الله كانوا في الظاهر مدققين جدا في حفظ وصاياها وكانوا يثقلونها بفروض وتقاليد جعلت اطاعتها امرا مؤلما وثقيلا. وكما كان اليهود يعترفون بانهم يوقرون الشريعة فكذلك يدعي الكاثوليك انهم يكرمون الصليب. فهم يرفعون رمز آلام المسيح هذا عاليا في حين انهم في حياتهم ينكرون ذاك الذي يرمز اليه.

يقيم البابويون الصلبان فوق كنائسهم وعلى مذابحهم وثيابهم. وفي كل مكان ترى علامات الصليب مكرَّمة ومرفوعة حسب الظاهر. لكنّ تعاليم المسيح تدفن تحت اكوام من التقاليد العديمة المعنى والتفاسير الكاذبة والفرائض الصارمة. وتنطبق اقوال المخلص عن اليهود المتعصبين بقوة اعظم على قادة كنيسة روما : « انهم يحزمون احمالا ثقيلة عسرة

الحمل ويضعونها على اكتاف الناس وهم لا يريدون ان يحركوها باصبعهم » (متى ٢٣: ٤). ان النفوس المستقيمة تظل دائما في رعب مستمر اذ تخشى غضب الله وسخطه بينما كثيرون من احبار الكنيسة يعيشون حياة التنعم والملذات الشهوانية.

ان عبادة التماثيل وذخائر القديسين والتوسل الى القديسين وتمجيد البابا كلها من حيل الشيطان لكي يجتذب افكار الناس بعيدا من الله وابنه. ولكي يتمم هلاكهم يسعى الى تحويل انتباههم بعيدا عن ذاك الذي فيه من دون سواه يجدون الخلاص. انه سيوجههم الى اي شخص آخر يمكن ان يستعاض به عن ذاك الذي قال : « تعالوا اليَّ يا جميع المتعبين والثقيلي الاحمال وأنا اريحكم » (متى ١١: ٢٨).

يحاول الشيطان دائما تشويه صفات الله وطبيعة الخطيئة والنتائج الحقيقية المستهدفة للخطر في الصراع الهائل. وتقلل مغالطاته من التزام حفظ شريعة الله وتبيح للناس ارتكاب الخطيئة. وهو في الوقت نفسه يجعلهم يفكرون افكارا كاذبة عن الله بحيث يخافونه ويبغضونه بدلا من ان يحبوه. فالقسوة التي هي غريزية فيه ينسبها الى الخالق، وهي تُجسَّم في النظم الدينية ويُعبَّر عنها في طرق العبادة. وهكذا تعمى اذهان الناس، ويبقيهم الشيطان تحت سيادته ويستخدمهم وسائل في يده لمحاربة الله. ان الامم الوثنية بتصوراتهم الفاسدة لصفات الله انساقوا الى الاعتقاد بلزوم تقديم الذبائح البشرية للحصول على رضى الله، وما كان ارهب ضروب القسوة التي ارتكبت في اثناء ممارسة الطقوس الوثنية المختلفة!

لجأت كنيسة روما الكاثوليكية، التي ضمت الطقوس الوثنية الى الطقوس المسيحية وتشبهت بالوثنية في تشويه صفات الله، لجأت الى ضروب ليست أقل قسوة او اثارة مما كان يمارسه الوثنيون. ففي أيام سيادة روما تعددت أساليب تعذيب الناس وارغامهم على قبول تعاليمها. منها الاعمدة التي كان يربط اليها من ىُحرقون لرفضهم قبول ادعاءاتها وإجابة مطالبها. ومنها ايضا مذابح قتل كثيرة

شديدة الهول. ولن تعرف هذه الفظائع حتى تنكشف في يوم الدين. ان احبار الكنيسة تعلموا من الشيطان، معلمهم، كيف يبتكرون وسائل لايقاع اقسى التعذيبات الممكنة من دون أن يقضوا على حياة ضحاياهم. وفي حالات كثيرة كانت تلك العملية الجهنمية تتكرر الى اقصى حدود الاحتمال البشري، الى ان استسلمت الطبيعة في صراعها وكان المعذَّبون يرحبون بالموت كراحتهم العذبة المشتهاة.

تدريب الكنيسة

كان هذا هو مصير خصوم روما. اما مشايعوها واتباعها فكان من ضروب تدريبهم وترويضهم الجلد والتجويع الى حد الموت وضروب القسوة المختلفة على الجسد في مختلف اشكالها المحزنة للقلب التي يمكن تصورها. فلكي يظفر التائبون برضى السماء كانوا ينتهكون شرائع الله بانتهاك نواميس الطبيعة. لقد تعلموا ان يفصموا الاواصر التي كانت قد تكونت لتبارك الانسان وتسعده في ارض غربته. ان المقابر الملحقة بالكنائس تحتضن ملايين الضحايا الذين قضوا حياتهم في محاولات فاشلة لاخضاع عواطفهم الطبيعية وكبت كل فكر واحساس بالعطف على بني جنسهم على اعتبار انه مغيظ لله.

واذا كنا نرغب في ادراك قسوة الشيطان المتعمدة التي اظهرها مدى مئات السنين ليس فقط نحو من لم يسبق لهم ان سمعوا عن الله بل ايضا في كل انحاء العالم المسيحي فعلينا فقط ان نطلع على تاريخ الكنيسة البابوية. فمن خلال نظام الخداع الهائل هذا يحقق سلطان الشر اغراضه لجلب العار على الله والشقاء على الانسان. واذ نرى كيف ينجح في التنكر وانجاز عمله بواسطة قادة الكنيسة يمكننا ان ندرك ادراكا أكمل لماذا هو ينفر من الكتاب المقدس هذا النفور العظيم. فلو قرأ الناس هذا الكتاب لاعلن لهم رحمة الله ومحبته وانه لا يحملهم ايّاً من تلك الاحمال الثقيلة، بل كل ما يطلبه منهم هو القلب المنكسر والمنسحق والروح المتواضعة المطيعة.

قلب المخلص المحب

والمسيح لا يقدم نفسه مثالا للناس، الرجال منهم او النساء، ليحبسوا انفسهم في الاديرة فيصيروا اهلا للسماء. وهو لم يعلم ابدا ان المحبة والعطف ينبغي كبتهما. لقد كان قلب المخلص يفيض بالحب. وكلما كان الانسان اقرب الى الكمال الاخلاقي صارت مشاعره اشد حساسية وزادت حدة شعوره بالخطيئة وتعمَّق عطفه على المجرَّبين. ان البابا يدعي انه نائب المسيح ، ولكن كيف تستطيع اخلاقه ان تحتمل المقارنة بصفات مخلصنا ؟ فهل سُمع عن المسيح انه قد القى بانسان في السجن او طرحه على آلة التعذيب لانه لم يقدم اليه الولاء كملك السماء ؟ وهل سمعه احد يحكم بالموت على من لم يقبلوه ؟ وعندما أهانه شعب قرية من قرى السامريين امتلأ يوحنا الرسول غضبا وسأله قائلا : « يا رب أتريد ان نقول ان تنزل نار من السماء فتفنيهم كما فعل ايليا ايضا » ؟ فنظر المسيح الى تلميذه في اشفاق ووبخ روحه الجافية بقوله : « لان ابن الانسان لم يأت ليهلك انفس الناس بل ليخلص » (لوقا ٩: ٥٤ و ٥٦). فما أبعد الفرق بين هذه الروح التي اظهرها المسيح وذاك الذي يعتبر بأنه خليفته!

اما الآن فان كنيسة روما تقدم الى العالم جبهة حسنة وجميلة اذ تحاول باعتذاراتها ان تغطي اعمال الوحشية والقسوة التي ارتكبتها. لقد تسربلت بثوب يشبه ثوب المسيح ولكنها هي هي لم تتغير. فكل مبدأ من مبادئ البابوية التي كانت في العصور السالفة، لا تزال باقية الى اليوم. والتعاليم التي ابتكرت في أظلم العصور ما زالوا متمسكين بها. فلا يخدعَّن احد نفسه. ان البابوية التي يميل البروتستانت اليوم الى اكرامها هي هي التي حكمت على العالم في ايام الاصلاح عندما وقف رجال الله مخاطرين بحياتهم ليفضحوا آثامها. ان لها الكبرياء والادعاء المتعجرف نفسيهما اللذين دفعاها الى الاستبداد بالملوك والامراء والى الادعاء بامتيازات الهية. وروحها ليس اقل قسوة او طغيانا الآن مما كانت عندما سحقت الحرية البشرية وذبحت قديسي العلي.

ان البابوية هي كما قد انبأت عنها النبوات أنها ستكون، اي الارتداد في الايام الاخيرة (٢ تسالونيكي ٢: ٣ و ٤). ويُعتبر جزءاً من سياستها انتحال الصفة التي تخدم اغراضها اجلّ خدمة. وتحت مظهر الحرباء السريع التلون تخفي سم الحية الناقع الاكيد المفعول الذي لا يتغير. انها تعلن قائلة : « ينبغي الا يبقى الايمان محفوظا عند الهراطقة او من يتهمون بالهرطقة » (٣٦٠). فهل هذه القوة او هذا السلطان الذي قد كتب تاريخه لمدى الف عام بدم القديسين يُعترف به الآن على انه جزء من كنيسة المسيح ؟

تغيير في البروتستانتية

ان التصريح الذي أدلت به بعض البلدان البروتستانتية بان الاختلاف بينها وبين الكاثوليكية اقل الآن مما كان قبلا لم يكن بلا سبب. فلقد حدث تغيير ولكنه لم يتناول البابوية. وفي الواقع تشبه الكاثوليكية الى حد كبير الكثير من الطوائف البروتستانتية المعاصرة بعدما انحطت البروتستانتية كثيرا جدا عما كانت في أيام المصلحين.

فاذ كانت الكنائس البروتستانتية تخطب ود العالم فقد أعمت المحبة الكاذبة عيون شعوبها. انهم لا يرون الا انه من الصواب ان يعتقدوا بالخير في كل شر، والنتيجة المحتومة هي انهم في النهاية سيعتقدون بالشر في كل خير. فبدلا من ان يقفوا للدفاع عن الايمان المسلم مرة للقديسين تراهم الآن كما لو كانوا يعتذرون الى روما عن موقف الجفاء الذي اتخذوه منها ويطلبون الصفح عن تصلبهم. ان فريقا كبيرا من الناس، حتى من الذين لا ينظرون الى كنيسة روما بعين الرضا، لا يوجسون خوفا من خطر جسيم من قوتها ونفوذها. وكثيرون يدافعون عنها قائلين ان الظلمة العقلية والاخلاقية التي كانت سائدة في العصور الوسطى اعانت على نشر تعاليمها وخرافاتها وظلمها، وان الذكاء والمعرفة المتزايدة في العصر الحديث وانتشار المعرفة وزيادة التساهل في أمور الدين تحرِّم انتعاش التعصب والطغيان. ان مجرَّد التفكير في ان مثل هذه الحالة ستوجد في هذا العصر المستنير هو امر يسخر منه الناس. نحن لا

ننكر ان نورا ثقافيا وأدبيا ودينيا عظيما يشرق على هذا الجيل. فمن كلمة الله المقدسة المفتوحة أشرق على العالم نور من السماء. ولكن لنذكر انه كلما زاد النور المعطى كلما زادت ظلمة الذين يحورونه ويرفضونه.

درس الكتاب بروح الصلاة

ولو درس البروتستانت الكتاب بروح الصلاة لرأوا الصفة الحقيقية للبابوية ولجعلهم ذلك يمقتونها وينبذونها. لكنّ كثيرين هم حكماء في غرورهم بحيث لا يحسون بحاجتهم الى طلب وجه الله بتذلل ليرشدهم الى الحق. ومع انهم يفاخرون بالنور الذي عندهم فانهم لا يعرفون الكتب ولا قوة الله. ينبغي لهم ان يجدوا وسيلة لتهدئة ضمائرهم ولذلك يطلبون الوسيلة الاقل روحانية والتي ليس فيها اذلال كبير لهم. فما يرغبون فيه هو وسيلة بها ينسون الله وتظهر للناس كأنها تذكرهم به. والبابوية تصلح تماما لسد حاجة امثال هؤلاء الناس جميعا. فهي معدة لفريقين من بني الانسان يشملان العالم كله تقريبا : اولئك الذين يريدون ان يخلصوا باستحقاقهم واولئك الذين يريدون ان يخلصوا في خطاياهم. هنا سر قوة البابوية.

جاءت على البابوية ايام كانت فيها الظلمة العقلية العظيمة عاملة على تقدمها ونجاحها. وسيظهر مع ذلك ان ايام الاستنارة العقلية العظيمة تعمل ايضا بالقدر نفسه على نجاحها. ففي العصور السالفة عندما كان الناس محرومين من كلمة الله ومن معرفة الحق كانوا معصوبي الاعين، وقد وقع آلاف منهم في الشرك اذ لم يروا الفخاخ والشباك المنصوبة لارجلهم. اما في هذا العصر فيوجد كثيرون ممن قد بهرهم لمعان نور الآراء البشرية، « العلم الكاذب الاسم »، فلا يرون الشبكة، ويسقطون فيها بسرعة كما لو كانت عيونهم معصوبة. لقد قصد الله ان يعتبر الانسان القوى العقلية هبة مقدمة اليه من جابله وان تستخدم في خدمة الحق والبر، ولكن متى احتضن الناس الكبرياء والطموح واعتبروا آراءهم ونظرياتهم ارفع من كلمة الله فحينئذ يكون الذكاء ابلغ ضررا من الجهل. وهكذا فالعلم الكاذب في

هذه الايام، الذي يقوض ايمان الناس بالكتاب، سيبرهن على نجاحه في تمهيد الطريق لقبول البابوية بطقوسها المسرة كما قد نجح حبس المعرفة والنور عن الناس في فتح الطريق لتعظيم البابوية في عصور الظلام.

في الحركات الجارية في الولايات المتحدة في هذه الايام لكي تظفر مؤسسات الكنيسة وممارساتها بمعاضدة الدولة نرى البروتستانت سائرين في اثر خطوات البابويين. بل اكثر من هذا فانهم يفتحون الباب على مصراعيه لتسترد البابوية في امريكا البروتستانتية، السيادة التي كانت قد خسرتها في العالم القديم. والذي يضفي على هذه الحركة أهمية اعظم هو حقيقة كون الغرض الاهم الذي فكروا فيه هو ارغام الشعب على حفظ يوم الاحد، وهذه عادة صدرت اصلا من روما التي تعتبرها سمة ورمزا لسلطانها. انها روح البابوية، اي روح الامتثال للعادات العالمية واكرام تقاليد الناس اكثر من وصايا الله، ما يتسرب الآن الى الكنائس البروتستانتية ويسوقهم الى تعظيم يوم الاحد نفسه، الامر الذي سبقتهم البابوية الى عمله.

القوة الزمنية تسند الكنيسة

اذا اراد القارئ ان يفهم ويعرف العوامل التي ستستخدم في الصراع الوشيك الوقوع فما عليه الا ان يتتبع تاريخ الوسائل التي قد استخدمتها كنيسة روم للغرض نفسه في العصور السالفة. ولو اراد ان يعرف كيف سيتعامل البابويون والبروتستانت متحدين معا مع من يخالفون او يرفضون تعاليمهم فلينظر الى الروح التي اظهرتها روما نحو السبت والمدافعين عنه.

ان المنشورات الملكية والمجامع العامة وفرائض الكنيسة التي يعضدها السلطان الدنيوي كانت هي الخطوات التي بواسطتها وصل العيد الوثني الى مركز الكرامة في العالم المسيحي. فاول اجراء عام لفرض حفظ يوم الاحد كان القانون الذي اصدره قسطنطين في عام ٣٢١ للميلاد (انظر التذييل) وطلب فيه من سكان المدن ان يستريحوا في « يوم الشمس الوقور »، الا انه سمح

للفلاحين بأن يواصلوا ممارسة اعمالهم الزراعية. فمع انه كان في الواقع قانونا وثنيا فقد فرضه الامبراطور عقب قبوله المسيحية قبولااسميا.

عقيدة تلاقي رواجاً

ان المنشور الملكي إذ لم يبرهن على انه بديل كافٍ للسلطة الالهية فان اوسابيوس، الذي كان اسقفا يطلب رضى الامراء وكان صديق قسطنطين الخاص ومتملِّقه ايضا، تقدم بادعاء كون المسيح قد ابدل السبت بالاحد. ولكن لم تقدم شهادة من الكتاب المقدس واحدة كبرهان على صدق العقيدة الجديدة. ثم ان اوسابيوس نفسه يعترف سهوا بكذب ادعائه ويشير الى المتسببين الاصليين في التغيير، فيقول : « كل الاشياء التي يقتضي الواجب عملها في يوم السبت قد حولناها الى يوم الرب » (٣٦١). لكنّ حجة يوم الاحد، مع انها على غير اساس، جرأت الناس على أن يطأوا سبت الرب تحت اقدامهم. فكل من كانوا يرغبون في الكرامة العالمية قبلوا العيد الشائع.

فلما ثبّتت البابوية قدمها استمر تمجيد يوم الاحد. وقد ظل الناس مشغولين بعض الوقت باعمالهم الزراعية عندما لم يذهبوا الى الكنيسة، وظل يوم السبت معتبرا يوم الراحة. و لكن حدث تغيير تدريجي، فالذين كانوا يشغلون وظائف مقدسة حرم عليهم ان يصدروا حكما في اي خصومة مدنية يوم الاحد. وبعد ذلك بقليل امر كل الناس من جميع الطبقات ان يكفوا عن مزاولة عملهم العادي والا فرضت غرامة على الاحرار والجلد على العبيد. وبعد ذلك صدر أمر بحرمان الاغنياء الذين ينتهكون كرامة يوم الاحد من نصف املاكهم، واخيرا اذا ظلوا مصرين على عنادهم ينبغي بيعهم كعبيد. اما الطبقات الدنيا فكان عقابهم هو النفي مدى الحياة.

وفي هذا ايضا استندوا الى العجائب، ومنها ان احد الفلاحين كان مزمعا ان يحرث حقله يوم الاحد، وفيما كان ينظف محراثه بقطعة حديد لصقت بكفه وظلت

عالقة بيده سنتين كاملتين، «الامر الذي زاد من آلامه وخزيه» (٣٦٢) .

وبعد ذلك اصدر البابا توجيهاته بان يُنذر كاهن الابرشية مَن يدنسون يوم الاحد ويطلب منهم الذهاب الى الكنيسة لتلاوة صلواتهم لئلا تحل كوارث عظيمة بهم وبجيرانهم. وان مجمعا اكليريكيا قدم حجة استخدمت منذ ذلك الحين على نطاق واسع، حتى بواسطة البروتستانت، تقول انه لكون بعض الاشخاص قد صُعقوا بالبرق وهم يشتغلون يوم الاحد فلا بد ان يكون هو يوم الرب. وقد قال الاساقفة : « يظهر ان غضب الله كان عظيما عليهم جدا بسبب اهمالهم هذا اليوم ». وقد قدم طلب يقول ان الكهنة والخدام والملوك والامراء وكل الناس الامناء « عليهم ان يبذلوا قصارى جهدهم واهتمامهم حتى تعود الى هذا اليوم كرامته، ولاجل كرامة المسيحية يجب حفظه بكل خشوع وورع في الايام المقبلة » (٣٦٣).

لا سلطان كتابياً

وإذ تبين ان احكام المجامع لا تكفي استعين بالسلطات الدنيوية على اصدار منشور يوقع الرعب في قلوب الشعب ويرغمهم على الامتناع عن العمل يوم الاحد. ففي مجمع عقد في روما اثبتت القرارات السالفة على نحو رسمي حازم. وقد أدمجت ايضا ضمن القانون الاكليريكي ــ الحق القانوني ــ ونفذتها السلطات المدنية في كل انحاء العالم المسيحي تقريبا (٣٦٤).

ولكن عدم وجود سلطان كتابي يأمر بحفظ يوم الاحد تسبب في كثير من الحيرة والارتباك. وقد تساءل الشعب عن حق معلميهم الذي يخولهم ان يلقوا جانبا اعلان الرب القاطع الذي يقول : « اما اليوم السابع ففيه سبت للرب الهك » لكي يكرموا يوم الشمس ويحفظوه. فلكي يُسدّ النقص في الشهادة الكتابية كان لا بد من ايجاد وسائل اخرى. وكان احد الناس الغيورين على انتصار يوم الاحد قد زار كنائس انجلترا في اواخر القرن الثاني عشر فقاومه شهود الحق الامناء، وقد كانت جهوده عبثا بحيث رحل عن تلك البلاد بعض الوقت،وكان يفكر

في بعض الوسائل لفرض تعاليمه على الناس. وعندما عاد سُدت الحاجة وكللت اعماله بعد ذلك بنجاح اعظم : فقد احضر معه سفرا يدل على انه من اللّه نفسه، فيه الامر المطلوب لحفظ يوم الاحد مع تهديدات رهيبة ليرعب بها العصاة. فهذه الوثيقة الثمينة ــ التي هي تقليد دنيء كالوصية التي تؤيدها ــ قيل انها سقطت من السماء ووجدت في اورشليم على مذبح القديس سمعان في جلجثة. لكنّ الحقيقة هي ان قصر البابا في روما كان هو المصدر الذي خرجت منه. ان الاحتيال والتزوير لأجل نجاح قوة الكنيسة وتقدمها وازدهارها اعتبرا في كل العصور مشروعين في نظر السلطة البابوية .

وقد نهى ذلك السفر عن العمل من الساعة التاسعة اي الثالثة بعد ظهر يوم السبت الى شروق شمس يوم الاثنين، واعلن ان سلطانه قد ثبت بمعجزات كثيرة. وأشيع ان الناس الذين اشتغلوا اكثر من الساعة المحددة ضُربوا بالفالج. وان طحانا حاول ان يطحن حنطته فرأى بدلا من الدقيق سيلا من الدم يخرج من الطاحون، ثم وقفت عجلة الطاحون برغم قوة اندفاع الماء الذي يديرها. وان امرأة وضعت عجينا في الفرن ليصير خبزا فلما اخرجته وجدته عجينا كما كان على رغم شدة حرارة النار في الفرن. ثم ان امرأة اخرى كان معها عجين لتخبزه في الساعة التاسعة، لكنها وضعته جانبا الى يوم الاثنين فوجدته في اليوم التالي مصنوعا في هيئة ارغفة ومخبوزا بقوة اللّه. وان رجلا خبز خبزا بعد الساعة التاسعة في يوم السبت لما كسر رغيفا منه في اليوم التالي وجد دما يخرج منه، بمثل هذه الخزعبلات والاختلاقات السخيفة حاول المدافعون عن يوم الاحد ان يثبتوا قدسيته (٣٦٥).

وفي اسكوتلانده كما في انجلترا امكن حفظ يوم الاحد على نحو افعل بكونهم ضموا اليه جزءا من يوم السبت القديم. لكنّ اختلافا حصل حول بداية اليوم المقدس. وقد صدر منشور من قبل ملك اسكوتلانده يقول : « يوم السبت من الساعة الثانية عشرة ظهرا ينبغي اعتباره مقدسا »، وكان يجب الا يزاول اي انسان عملا عالميا من تلك الساعة الى صباح يوم الاثنين (٣٦٦).

ولكن على رغم كل المحاولات لتقديس يوم الاحد اعترف البابويون انفسهم جهارا بالسلطان الالهي ليوم السبت وبأن البشر هم الذين سنوا قانونا بابداله بالاحد. ففي القرن السادس عشر اعلن مجمع بابوي قائلا بكل وضوح : « ليذكر المسيحيون ان اليوم السابع يوم قدسه الله وقد قبله وحفظه لا اليهود وحدهم بل ايضا جميع الذين يقولون انهم يعبدون الله، مع اننا نحن المسيحيين قد ابدلنا سبتهم بيوم الرب » (٣٦٧). وكل الذين كانوا يعبثون بشريعة الله لم يكونوا يجهلون صفة عملهم. لقد تعمدوا ان يجعلوا انفسهم فوق الله .

مثال مدهش

وقد قُدم الينا مثال مدهش عن سياسة روما تجاه من خالفوها في اضطهادها الدامي الطويل الامد للولدنسيين الذين كان بعض منهم يقدسون السبت. وقد قاسى غيرهم مثل تلك الآلام بسبب ولائهم للوصية الرابعة. ان تاريخ أثيوبيا (الحبشة) له معناه الخاص وأهميته العظيمة .ففي وسط قتام العصور المظلمة الحالك أُغفل المسيحيون العائشون في أواسط افريقيا وغابوا عن أنظار العالم الذي نسيهم، ولمدى قرون طويلة ظلوا ينعمون بالحرية في ممارسة ايمانهم. ولكن اخيرا علمت روما بوجودهم وسرعان ما تحايلت على امبراطور الحبشة ليعترف بالبابا على انه نائب المسيح. وقد تلت ذلك تصريحات اخرى. فقد صدر مرسوم يحرِّم حفظ يوم السبت تحت اقسى العقوبات (٣٦٨). ولكن سرعان ما صار طغيان البابا نيرا مراً وثقيلا حتى عول الاحباش على كسره عن اعناقهم. فبعد صراع رهيب نفوا البابويين من ارضهم واستعادوا عقيدتهم القديمة. وقد تهللت الكنائس بحريتها ولم ينسوا قط الدرس الذي تعلموه عن مخاتلات سلطان روما وتعصبها واستبدادها. وقد قنعوا بالبقاء في داخل دائرتهم مجهولين من باقي العالم المسيحي.

لقد كانت كنائس افريقيا تحفظ السبت كما كانت تفعل الكنيسة البابوية قبلما ارتدت تماما. ففي حين كانوا يحفظون السبت اطاعة لوصية الله امتنعوا عن مزاولة اعمالهم في يوم الاحد تمشيا مع عادة الكنيسة. فلما اشتد ساعد

كنيسة روما وقويت شوكتها داست على سبت الله لترفع من شأن يومها. لكنّ كنائس افريقيا التي ظلت في الظل قرابة الف سنة لم تشاركها في هذا الارتداد، فلما خضعت تلك الكنائس لسيادة روما ارغمت على القاء السبت الحقيقي جانبا وتمجيد السبت الزائف وحفظه، ولكن ما ان استعادت استقلالها حتى عادت الى اطاعة الوصية الرابعة (انظر التذييل).

تعلن سجلات الماضي هذه بكل جلاء عداء روما للسبت الحقيقي والمدافعين عنه والوسائل التي تستخدمها لتكرم القانون الذي هو من ابتكارها. ان كلمة الله تعلن ان هذه المشاهد ستتكرر عندما تجتمع كلمة الكاثوليك والبروتستانت لتعظيم يوم الاحد واكرامه.

الوحش بقرني خروف

تعلن النبوة المذكورة في رؤيا ١٣ ان القوة التي يرمز اليها الوحش الذي له قرنان شبه خروف ستجعل « الارض والساكنين فيها » يسجدون للبابوية، المرموز اليها هناك بالوحش الذي هو « شبه نمر ». والوحش الذي له القرنان ايضا سيقول « للساكنين على الارض ان يصنعوا صورة للوحش ». وزد على ذلك فانه سيأمر الجميع « الصغار والكبار والاغنياء والفقراء والاحرار والعبيد » ان يقبلوا سمة الوحش (رؤيا ١٣: ١١ ــ ١٦). لقد تبرهن ان الولايات المتحدة هي القوة المرموز اليها بالوحش الذي له قرنان شبه خروف وان هذه النبوة ستتم عندما ترغم الولايات المتحدة الناس على حفظ يوم الاحد الذي تدعي روما انه اعتراف خاص بسيادتها. لكنّ الولايات المتحدةّ لن تكون هي الوحيدة في تقديم ولائها الى البابوية. فنفوذ روما في الممالك التي كانت قبلا تعترف بسيادتها لم يبطل بعد. والنبوة تنبئ بأنها ستسترد سلطانها. « ورأيت واحدا من رؤوسه كأنه مذبوح للموت، وجرحه المميت قد شفي وتعجبت كل الارض وراء الوحش » (رؤيا ١٣ : ٣). ان ايقاع هذا الجرح المميت بالوحش يشير الى سقوط البابوية في عام ١٧٩٨. وبعد هذا يقول النبي : «جرحه المميت قد شُفي وتعجبت كل الارض وراء

الوحش ». وبولس يعلن بكل وضوح ان « انسان الخطيئة » سيبقى الى المجيء الثاني (٢ تسالونيكي ٢: ٣ ــ ٨). وسيظل قائما باعمال الخداع وبنشرها الى انقضاء الدهر. والرائي يعلن مشيرا ايضا الى البابوية قائلا: «فسيسجد له جميع الساكنين على الارض الذين ليست اسماؤهم مكتوبة ... في سفر حياة الخروف» (رؤيا ١٣ : ٨). ففي الدنيا القديمة والدنيا الجديدة ستقبل البابوية السجود في الاكرام الذي يكنّه الناس لشريعة يوم الاحد التي تستند استنادا كليا الى سلطة كنيسة روما.

ومنذ منتصف القرن التاسع عشر قدم تلاميذ النبوة في الولايات المتحدة هذه الشهادة الى العالم. ونحن نرى في الاحداث الجارية اليوم تقدما سريعا نحو اتمام هذه النبوة. فلدى المعلمين البروتستانت ادعاء السلطة الالهية نفسه لحفظ يوم الاحد والنقص ذاته في البرهان الكتابي كما هي الحال مع القادة البابويين الذين قد اخترعوا قصة المعجزات لتشغل مكان أمر الله. ان التصريح بان ضربات الله تحل بالناس جزاء تدنيسهم لكرامة يوم الاحد سيتكرر. وقد بدئ بالتشديد عليها من فوق المنابر. وتوجد حركة لارغام الناس على حفظ يوم الاحد وهي سريعة الانتشار.

ان كنيسة روما عجيبة في مكرها ودهائها. فهي تستطيع ان تقرأ ما سيكون. وتنتظر وقتها اذ ترى ان الكنائس البروتستانتية تقدم اليها الولاء بقبولها سبتا زائفا وانها تتأهب لفرضه بذات الوسائل التي استخدمتها هي نفسها في الأيام السالفة. والذين يرفضون نور الحق سيستعينون بهذا السلطان الذي يدعي لنفسه العصمة ليمجدوا قانونا صدر منه. وما اسرع ما تخف الى معونة البروتستانت في هذا العمل، اذ ليس من الصعب ان يخمن الانسان ذلك. من يفهم افضل من الرؤساء البابويين كيف يتعامل مع من يعصون اوامر الكنيسة؟

تكوِّن كنيسة روما الكاثوليكية بكل فروعها الممتدة في انحاء العالم نظاما واحدا متسعا تحت سيادة الكرسي البابوي، والقصد منه خدمة مصالحه. ويتعلم ملايين المنتمين اليها في كل قطر على سطح الارض ان يعتبروا انفسهم

مرتبطين بالولاء للبابا. وأياً تكن قوميتهم او حكومتهم فانه يطلب منهم ان يعتبروا سلطة الكنيسة فوق كل سلطة اخرى. ومع انهم يُقسمون يمين الولاء للدولة، فان خلف هذا يوجد النذر بالطاعة لروما الذي يحلهم من كل عهد آخر يضر بمصالحها.

والتاريخ خير شاهد على محاولاتها الماكرة الثابتة للتدخل في شؤون الامم، فمتى وجدت موطئا لقدمها تناصر اهدافها وتروج لها حتى ولو كان في ذلك القضاء على الامراء والشعب. ففي عام ١٢٠٤ استكتب البابا انوسنت الثالث بطرس ملك الاراغون هذا التعهد التالي غير العادي وهو يقول : « انا بطرس ملك الاراغون أقر وأتعهد أن أظل أمينا ومطيعا لسيدي البابا انوسنت ولخلفائه الكاثوليك ولكنيسة روما وبكل أمانة أجعل مملكتي مطيعة له وادافع عن الايمان الكاثوليكي وأقمع كل انحراف نحو الهرطقة » (٣٦٩). هذا يتفق مع الادعاءات الخاصة بسلطان بابا روما في « أن له الحق الشرعي في خلع الاباطرة » و « انه يستطيع ان يحل الرعايا من ولائهم لحكامهم الاشرار » (٣٧٠).

وليتذكر الجميع ان روما تفخر بانها لا تتغير ابدا. ان مبادئ غريغوريوس السابع وانوسنت الثالث لا تزال هي مبادئ الكنيسة الرومانية. ولو كان لها السلطان لكانت تضعها في موضع التنفيذ الآن بالنشاط والعزم نفسيهما اللذين كانا لها في القرون السالفة. والبروتستانت لا يعلمون ما هم صانعون عندما يقترحون قبول مساعدة روما في أمر تمجيد يوم الاحد وحفظه. ففيما يكونون منكبِّين على اتمام غرضهم تهدف روما الى اعادة تثبيت سلطانها لتسترد سيادتها الضائعة. فلو ثبت في الولايات المتحدة المبدأ القائل ان الكنيسة يمكنها ان تستخدم او تسيطر على سلطان الدولة، وان الممارسات الدينية يجب ان يساق الناس اليها بقوة القانون الدنيوي، وبالاختصار لو أن سلطة الكنيسة والدولة تتحكم في ضمائر الشعب فلا بد من ان يتحقق انتصار روما في تلك البلاد.

ان كلمة الله قدمت الانذار بالخطر المحدق، فاذا لم يُلتفت الى هذا الانذار فسيعلم العالم البروتستانتي ما هي اغراض روما الحقيقية ولكن بعد فوات الاوان للنجاة من الشرك. انها تتقوى ويشتد ساعدها بكل هدوء. وتعاليمها تُقحم نفوذها في دور التشريع وفي الكنائس وفي قلوب الناس. انها تقيم مبانيها الهائلة الشامخة التي في مخابئها السرية ستتكرر اضطهاداتها السابقة. انها تشدد قواها خفية وفي غير شبهة لتتمم غاياتها عندما يأتي الوقت الذي فيه تضرب ضربتها. كل ما تصبو اليه هو المركز الممتاز وهذا قد اعطي لها الآن. وبعد قليل سنرى ونحس بماهية غرض العنصر الكاثوليكي. فأي من يؤمن بكلمة الله ويطيعها هو بذلك يجلب على نفسه العار والاضطهاد.